26 قصيدة لجاد الحاج

مجلة الشعر تونس شتاء ١٩٨٢
العدد ٣

قاسم قاسم

بعد المجموعة الشعرية الاولى « **قطار الصدفة** » التى أصدرتها دار الكاتب العربى (1973) ببيروت **لجاد الحاج** أصدرت دار النهار للنشر مجموعته الشعرية الثانية بعنوان « **26 قصيدة** » (1979) فى كتيب بلغت صفحاته 63 وقد قدمها الشاعر يوسف الحال الذى قال عنها : « **جاد الحاج من يوم عرفته رجل ينشبث بالشعر يكتبه كاسد ينشب مخالبه فى فريسته ويمعن فى اغتصابها حتى العظم ... كتب جاد الحاج شعرا كثيرا وما هذه القصائد فى هذا الكتاب إلا بعضها الذى اختاره للنشر فأحسن الاختيار ..** » أما تصميم الغلاف فقد كان من عمل الفنانة هيفاء خليل . وقد أهدى جاد الحاج مجموعته الشعرية هذه الى (ربى) ولا ندرى من هى (ربى) ... أ الوطن البعيد ؟ (فجاد الحاج يعيش منذ مدة بالغربة فى لندن فهو محرر ثقافى بمجلة « الدستور ») أم هو اسم حبيبة أخرى ...

و « 26 قصيدة » لم تصدر محملة بشذا الشعر فقط بل كان الرسم أيضا حاضرا من خلال رسومات خمسة يظهر انها من عمل الشاعر نفسه . فكانت تجريدية جدا ويغلب عليها الرمز فى جميع جوانبها وعناصرها المؤتلفة منها وهى فى جملتها تزيد القصائد تفسيرا وتحليلا بل انها تكاد تكمل النطق المشعرى والعملية الابداعية .

وتستهل المجموعة الشعرية بقصيدة **كيف يا حبي** من خلالها نرى التساؤل الملح فى وجه الزمان ويظهر ذلك فى هذه الكلمة الصغيرة (كيف) ؟ ولكنها الكبيرة فى العقل والوجدان والشعور والتى تتردد ست مرات :

Scanned by CamScanner

« كيف ينشد الأطفال ، تحت السرو

كيف يحين موعد الظلال

كيف يفتش الأولاد غابة

كيف يسهر الفلكى

كيف يعرف الراعى خاصرة الجبل

كيف أتبع ضحكة البرارى »

فالتساؤل ينصب على نشيد الاطفال ولعبهم وعلى الفلكى الذى يسهر يستطلع الوجود ونجومه ومجراته وعلى الراعى الذى يعرف موطن حياته وعلى الطبيعة فى البرارى والاجمات . فكل هذه العناصر : الاطفال والفلكى والراعى تتوحد فى مكان واحد هو البرارى أى الطبيعة . ومن المعروف أن لبنان جوهره طبيعة فهو يأسر الرائى بجماله وبسحره الطبيعى قبل كل شىء ببرارية وجباله وبما فى هذا البرارى من (أطفال وشعراء ورعاة) وهؤلاء يمثلون الطهر الانسانى ويمثلون رحيق البشرية إن جاز التعبير . فكما هو ملاحظ إن القصيدة بنيت على هذا الهيكل الذى يكاد يتخفى عن الانظار ولكنه بارز لكل من يرد عناصرها الى « المكان » الذى نشأ فيه الشاعر فى صباه وطفولته وشبابه .

والشعر كما يقول النقاد القدامى ابن بيئته ويستمد عناصره الاولية والمعنوية منها ... وأكثر الشعر الحديث ينسى هذه الحقيقة فيهيم فى أجواء بعيدة عن أفق الشاعر حتى ينسى نفسه أو ينعدم عنده الاحساس بالانتماء ، فينتمى الى أجواء أخرى طوباوية أو ثقافية من خلال القراءات المتعددة لأدب الرحلات وغيره ...

وقليل هو الشعر المتأصل فى البيئة يعبر عنها بشفافية . انظر الى الحركة الاولى فى القصيد :

« كيف ينشد الأطفال

تحت السرو »

Scanned by CamScanner

وانظر جيدا الى كلمة « السرو » هذه . انها لم توضع جزافا هنا بل إنها تمثل الوطن الأم ... لبنان ... بل إنها مفتاح القصيدة بأكملها اذا وقفنا عندها نتمثل ظلالها وما تخفيه وراءها من ألوان ، استطعنا أن نتمثل القصيدة ككل . ونفهم أبعادها الكلية كما أوردنا فى السابق . أما اذا تغاضينا عنها ولم نلامسها بأفكارنا ، نضيع المعنى الكبير الذى سيطر على الشاعر وهو يمر بمرحلة المخاض والولادة .

أما المفتاح الثانى بعد كلمة « السرو » فهو « الجبل » :

« كيف يعرف الراعى

خاصرة الجبل »

وما الجبل إلا « جبل » لبنان ومن يقول جبلا يقول لبنان فالجزء أصبح يدل على الكل .

من هذا نفهم ان جاد الحاج فى شعره هذا **مقتصد** كثيرا فى كتابته الفنية بل ضنين جدا . فبعض قصائده لا تتعدى أربعة أسطر مثل « مغلق » فهو متعلق بمقولة « ما قل ودل » ومفاهيم البلاغة العربية .

* * *

وليس هناك أصعب على الفنان من حصار يأتيه من جوانب عدة . حصار وجودى ومادى . فالشاعر محاصر فى القول والفعل والغناء والحرية . فقوله محاصر وفعله محاصر وغناؤه محاصر وحريته محاصرة . ولكن هل هو راض بهذا الحصار وهل استسلم لهذه العبودية ؟ لا ... انه سيبحث عن بصيص من أمل وكوة من نور فى جميع هذه الجوانب المغلقة ليدلى بما يستطيعه من قول أو يفعل ما يقدر عليه وسط هذه الظلمات والمكبلات .. فهو أمام تحد يكاد يكون استفزازيا لمن يكبل الحرف والعمل والصوت والرحيل (أى حرية السفر الى الخارج) وقد عبر الشاعر عن هذا البصيص من الامل واجتراء موقفه وعدم

Scanned by CamScanner

ركونه الى الصمت المطلق والسلبية التامة ، بهذا المقطع الذى يعاد بعد كل ترنيمة . « إن كان لا بد » هذا الاقرار يجيب عنه بضمير المتكلم فى أول مقطع:

« إن كان لا بد من قول شىء
ولا يكون شىء للقول
أقول أحبك »

فالحب عاطفة شخصية لا مشاركة فيها بل إنه غير قابل للتجزئة . أما الاجابات الاخرى فقد كانت بضمير الجماعة . (ننام ، نغنى ، نمشى) :

« ننام تحت الشجرة
نغنى فى ضوء القمر
نمشى على الماء »

لأن هذه الأفعال يمكن مقاسمتها ويمكن التشارك فيها مع أفراد الوطن جميعا .

فاذا انتفى الفعل ، ولا بد من فعل شىء يقول الشاعر : نلتجىء للنوم تحت الشجرة أى نتمسك على الأقل بهذه الشجرة : الوطن . ننام تحتها الى أن يأتى عهد اليقظة .

واذا انتفى الغناء فى الليل المستحيل ولا بد من فعل شىء فلا نصمت بل نغنى على الاقل فى ضوء القمر . حتى ينجلى الليل فنغنى فى كل وقت فى الصباح والظهيرة والعشية ...

واذا انتفت الحرية من الوطن عندما يؤخذ هذا الوطن ويغتصب ونجد أنفسنا مضطرين الى الرحيل (نمشى على الماء) .

* * *

Scanned by CamScanner

أما **حرب لبنان الأخيرة** (ص II) فيصورها الشاعر تصويرا لا يتصف بالتقريرية أو الظاهراتية للاحداث فهذا ليس من شأنه ...

بل يصور انفعاله بالاحداث كما يصور مدى تأثيرها على مسيرة الوطن وعبثية هذه الحرب التى لا معنى لها . فقد حاول الشاعر أن يفهم الدوافع الخفية التى تسير هؤلاء الذين لا يجدون معنى لاعمالهم إلا فى الخروج عن المألوف والسقوط بالوطن الى الهاوية وبث الفوضى بين أرجائه وشعبه :

« حاولت أن أشرح للحاجز
لماذا يسكر البعض خارج المقهى »

فالمقهى هى مكان قانونى لا يمكن تخطيه اذا أردنا أن نشرب شيئا . فهو رمز للوطن بأبعاده المكانية والقانونية ولكن البعض خرجوا من المقهى وسكروا خارجه :

« لماذا يعزف البعض خارج السلالم »

لا موسيقى جدية بدون الاعتماد على سلم موسيقى معروف .

والخروج عن السلم يعتبر ثورة غير جدية وهدفه بث الفوضى والبلبلة وما أكثر الذين خرجوا عن السلالم وثاروا عن المألوف فكانت المأساة :

« لماذا يختار البعض خارج اللائحة
طعام حياتهم »

وهذه قصة الاستهتار وعدم المبالاة بالقانون الوضعى لهذا الوطن . فكل الفرقاء خرجوا عن لائحة الطعام . خرجوا عن الدستور الوضعى وأدخلوا وطنهم فى دوامة المليشيات والتفرقة .

وماذا كانت نتيجة هذا الخروج ؟

Scanned by CamScanner

- تشـرد الـوطـن
- وفقـد الـدم فصيلتـه
- وأصبحـت الأقنعـة تغطـي الوجـوه

« وطنـي يـدعى التشـرد
دمـي مـن فصيلـة الصفـر
وجهـي الأخيـر قنـاع »

واسلم الوطن نفسه للتيارات ولكل ما هو غير منتج وأصبح مرتعا للخراب تعبث به الدمى .

وليس للشاعر إلا الأسى واليأس ودعوة مطر الرحمة :

« وقفـت وحيـدا
معلنـا يـأس الغـار
داعيـا مطـر الـرحمـة
أنـا حطـاب فـاسـه الأسـى
أشجـاره عينـاه
الغـابـة أسلمـت للـريـح
النهـر يمنـح ضفـافه للقصـب » .

قـاسم قـاسم

Scanned by CamScanner